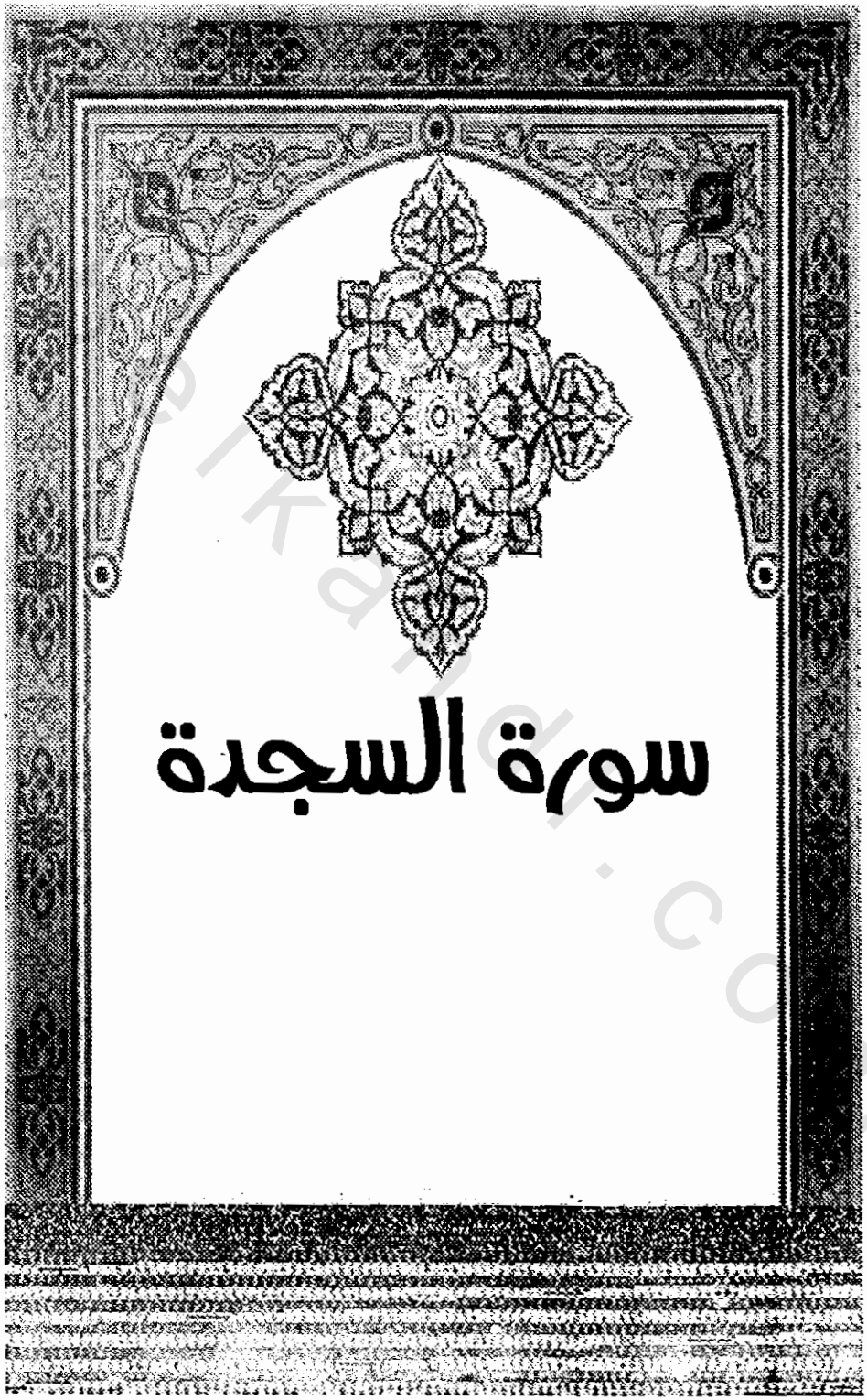
سورة السجدة

obeikandl.com

﴿ سورة السجدة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ۝٤ ﴾

أقول: الذى يكمل فهم هذه الآية هو ما ورد من قوله سبحانه فى سورة ق: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

فقوله سبحانه: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ يفيد أنه سبحانه كان قادراً على خلقهما فى أقل من ذلك بكثير، لكون ذلك لم يكلفه لغوباً ولا تعباً ولا مجهوداً، ودليلنا فى ذلك هو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وإنما خاطبت الألوهية الحدث بما يعقله ويفهمه من لغة الخطاب، حتى تقربه إليها، وإلا لأصبح لا تقارب بين القديم والحدث فى لغة الخطاب الإلهى، ولهذا لما ابتدأ القديم مخاطبة الحدث قال له: اقرأ، أى تقرب إلىَّ بما يناسبك منى، وإلا فلن تعرفنى، فحتى يعرف الحدث شيئا عن القديم أعطاه شيئاً من صفته فى الحدوث كالمسافة والحدود والعدد والجهة، وإلا فأين هو من القديم سبحانه وتعالى عما يشركون ؟

فهكذا قربه إليه بهذه الألفاظ الدالة على الحدث، وإلا فإن الحدث لايعرف القديم بشئ من الوجوه، لكونه لايعرف شيئاً عنه البته، ومثال ذلك كالجنين الذى فى بطن أمه، وأراد أن يبصر العالم الخارجى ويراه ويسمعه ويخاطبه، وإذا قربنا عالمين متناقضين لكى يتعارفا فإنا

نخفق فى ذلك، فكيف يدعى الحدث معرفة القديم ؟ وكلاهما يناقض الآخر.

أقول: ولهذا كثر الإنكار من قبل الحدث على الألفاظ التى عرف القديم بها نفسه، وكثرت الآراء والأقوال فى لفظ بعينه أشار به القديم إلى نفسه كاليد والوجه والجنب والنزول والاستواء إلى غير ذلك من الألفاظ، ومن أجل هذا تولدت الفرق المتكاثرة وتزايدت كالمعتزلة والمجسمة والجهمية والوهابية.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ ﴾

اعلم أنه مهما اجتهد العقل المجرد أن يعلم حقيقة الاستواء الإلهى فإن مثله كمثل الذى يبحث عن إبرة ضاعت منه فى البحر المحيط الأعظم، فإن حقيقة الأفعال الإلهية عندنا مجهولة مهما فسرت باللسان والقول، فإنها بعيدة عن حقيقة الحق سبحانه.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾

فكل شئ خلقه فهو حسن، لا تدخله يد القبح، وإن رأيناه نحن بعين القبح، فهو حسن فى النظرة الإلهية الكمالية، ولهذا كمل من العارفين من يرى الخنفساء فى الجمال كالطاووس، ويرى المرض كالعافية، ويرى الجارية السوداء القبيحة كأجمل جميلات العالم، وهذه النظرة الوجودية الكاملة حكاها الحق سبحانه فى الكتاب المجيد بقوله: ﴿ وَلَأَمَةٌ

مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾.

وعن هذه النظرة الإلهية الكاملة يقول سيدى محيى الدين بن عربى معبراً عنها لما تحقق بها:

لقد أضحى قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير الرهبان

وحكى الشعرانى فى المنن عن رجل من أقطاب هذه النظرة، أن أحد مريديه ظل يخدمه عشرين عاماً وكان أمرداً إلى أن نبتت لحيته وهو لايدرى شيئا عن ذلك برغم رؤيته له كل يوم.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

إذن هذه مشيئته سبحانه فى أنه يجب أن تمتلأ جهنم بالجنة والإنس، ومن ثم هدى هذه الأعيان الداخلة لعمل جهنم حتى يتأهل لها دخولها، وذلك باستعداد فطرتها للعمل بعمل أهل النار، ولذلك قيل فى حقهم: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ أى لو أخرجوا من جهنم بعد تذوق عذابها لعادوا لعمل أهل النار مرة أخرى، وهذا الاستعداد فطرهم للعمل بعمل أهل النار.

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذا الخطاب موجه للعارفين قبل الكفار، لكونهم هم أولى بالتذكر من غيرهم، وغيرهم أولى بالنسيان منهم، فحذرهم الحق سبحانه من نسيانه.

ولذلك لما قيل لأحد العارفين وقت موته: قل لا إله إلا الله

قال : مانسيته فأذكره .

وقيل لأحد الصوفية : ما أعظم الحجاب؟

فقال : نسيانه وهو أشد من عذاب جهنم .

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى تتجافى قلوبهم عن الحجاب والنسيان، فهم فى تذكر دائم لمولاهم فى كل وقت، لا فى وقت السحر فقط كما يوهم ظاهر الآية فافهم .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أى فلا تعلم نفس من غيرهم ما أخفى لهم من قرة أعين، وذلك لكونهم لهم اطلاع على مقاماتهم الأخروية كما حكى ذلك الشعرانى عن نفسه فى المنن من أن الله سبحانه وتعالى كشف له عن قصوره فى الجنة والدور التى أعدها له .

هذا ليعلم الناس أن السادة الصوفية هم سادة الآخرة، فرضى الله تعالى عنهم وأرضاهم .

أقول: واعلم أن هذا كله قد وردت به السنة، وذلك من نحو اطلاع النبى ﷺ على قصر لعمر فى الجنة وبه جارية، وعلى نحواطلاعه ﷺ على بلال فى الجنة كما ورد به الخبر .